

الرّوابط الانسانيّة

ناصر بن عقيل الطريفي

الأستاذ المساعد بجامعة

خلق الله تعالى الانسان وجعله ميالاً إلى الألفة والاجتماع حتى لا يستطيع أحد من الناس أن يعيش منعزلاً ومستغنياً عن بقية الناس ، فالإنسان كما يقول ابن خلدون^(١) مدني بالطبع — كما أن كل إنسان محتاج إلى غيره من الناس — فهو محتاج لمن يزرع له طعامه ، ومحتاج لمن يخرج له الماء ، ومحتاج لمن يصنع له ملابسه ، ومحتاج لمن يصنع له آلاته التي يستعملها في شؤون حياته . ومحتاج لمن يحفظ عليه الأمن ، ومحتاج لمن يستخرج له حقوقه ، ومحتاج لمن يدفع عنه هجمات الآخرين ، ومحتاج إلى من يعلم اولاده ، ومحتاج إلى الزوجة . وهكذا فكل فرد محتاج إلى غيره . قال الله تعالى : « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُلْحِيّاً وَرَحْمَةً رَبِّكَ خَيْرٌ مَّا يَجْمَعُونَ »^(٢) .

والشاعر يقول :

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدام
ومن جراء هذا الاحتياج تنشأ بينهم الروابط والعلاقات ، وهو ما نريد بحثه .

وإذا تتبعنا الروابط التي يدعو إليها بعض الناس نجدها :

إما روابط وطنية ، او روابط قومية ، أو رابطة مبدأ .

وسنبحث كل رابطة على حدة ونبين الرابطة الصحيحة لربط الناس وأسباب

فساد غيرها .

* رابطة الوطنية *

تنشأ رابطة الوطنية بين الذين يعيشون على أرض واحدة ووطن واحد ، فيجتمعون ويترابطون بحكم انتمائهم إلى ذلك الوطن .

والشعور بحب الوطن والانتماء إليه فطرى في الإنسان ، بل يشترك معه الحيوان في ذلك ، فيشعر الانسان بالحنين إلى وطنه إذا ابتعد عنه ، فتبهج الذكريات في نفسه فيشعر بالرغبة في الرجوع الى وطنه وبلاده .

وهذا الشعور لا يلام عليه الانسان ، لأنه فطرى لا يملك التحكم فيه ، وقد وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مودعاً لمشارف مكة وربوعها عند جبل أبى قبيس — والذكريات تدور في رأسه — قائلاً : (والله لأنت أحب البقاع إلي ولولا قومك مخرجي منك ما خرجت)^(٣) ، وصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم حنوا إلى ديارهم في مكة — حينما استقروهم المقام في المدينة المنورة ، حتى دعا الرسول صلوات الله وسلامه عليه ربه أن يحب إليهم طيبة كما حب إليهم مكة المكرمة .

ولكن الذي يلام عليه الانسان هو أن تكون الوطنية رابطةً بينه وبين بنى بلده دون من سواهم ويقدم مصالحهم على أى اعتبار آخر من دين أو عقيدة ، وينظر لغير اهل وطنه شزراً لأنهم لا يشتركون معه في الوطنية .

وكانت هذه الرابطة غير صالحة للربط الانساني لأنها :

١ — ناشئة عن انحطاط الفكر ، إذ لو كان الفكر مستنيراً لجعل الرابطة أعم من أن تكون بين بنى الوطن الواحد ، إذ الإنسان بحاجة لأن يرتبط بالانسان عموماً والوطن ضيق لا يمكن ان يسع جميع الناس .

٢ — لأنها ناشئة عن غريزة حب البقاء بالدفاع عن النفس ، فلا تظهر آثار هذه الرابطة إلا إذا اعتدى على الوطن أحد ، فعند ذلك تحملهم على الدفاع عن البلد الذي يعيشون فيه والأرض التي يسكنونها ، أما في حالة السلم والاستقرار — وهي الحالة الأصلية للإنسان — فلا وجود لها بل ربما ينشب الصراع بين ابناء الوطن الواحد^(٤) ، فهي رابطة مؤقتة

٣ — لأنها عاطفية — والعاطفة عرضة للتغيير والتبديل فتثور وتخمد ، وتشتعل وتخبو فهي غير منضبطة بضوابط معينة ، فيثور الحماس في نفوس أبناء الوطن الواحد على غيرهم فيلحقون بهم الضرر لمجرد نصرة وطنهم وسيادته على سائر الأوطان .

يقول شاعر الوطنية :

بلادك قدمها على كل ملة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم

٤ — تسبب الخلاف والخصام بين أبناء الأوطان المختلفة ، اذ كل يريد سيادة وطنه على الآخر ، فيقدم مصالح وطنه على مصالح الآخرين الذين يعيشون في أوطان أخرى فتكون الوطنية سوءاً ووبالاً على الذين لا يشاركون في الوطنية ، فيحصل عليهم الظلم والاعتداء . يقول محمد أسد^(٥) : (كانت الفكرة التي تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية هي الاجتياح بالقوة واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده ، وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون في عنفهم سوءاً ولا في ظلمهم انحطاطاً . وإن العدل الروماني الشهير كان عدلاً للرومانيين وحدهم) .

٥ — ثم إن تحديد الوطن غير واضح ، هل هو المسكن الذي ولد الانسان وشب فيه ، أو الحارة التي ترعرع فيها ، أو البلدة التي عاش فيها ، أو الدولة التي ينتمي إليها . ثم ما ذنب أولئك الذين لا ينتمون إلى هذا الوطن ، إذ ليس باستطاعتهم ضمّ اوطانهم إلى الأوطان الأخرى ليحصل لهم الارتباط الوطني^(٦) .

٦ — ثم إن رابطة الوطن والوطنية تنشأ المواطن الصالح — أى في داخل حدود بلاده ووطنه أما إذا خرج عن وطنه فلا ضير عليه أن يعيث في الأرض فساداً ، أو يترك الأخلاق الفاضلة ، فيكذب ويلقى بالقاذورات في الشوارع ويخالف القوانين والأنظمة. كما هو الحال عند الأوروبيين حيث يكونون في بلادهم مضرب المثل في التمسك بالأخلاق الفاضلة والقيم والخصال

الحميدة ، فإذا خرجوا عن ديارهم تركوا كل المثل والفضائل التي يتمسكون بها في بلادهم واطلقوا العنان لرغباتهم ونزواتهم .

نداء الناس ومخاطبتهم :

يظن بعض الناس ضرورة مناداة الناس ومناشدتهم بالوطنية فيقول لهم : أيها المواطنون لحثهم على التمسك بشيء هو في صالح الوطن فيندفعوا لتلبية هذا النداء ، ولكن الله اغنى المسلمين عن هذا النداء بعبارات اسلامية صادقة : « أيها المؤمنون » « أيها الناس » « أيها الإخوة » .

* رابطة القومية *

خلق الله الانسان مفطوراً على حب أهله وعشيرته ، وجعل عيشه معهم منذ نعومة أظفاره والتصاقه بهم منذ أن تفتحت عيناه على الدنيا سبباً لحبه لهم وارتباطه بهم ، فهو عاش فيهم فترة لا يعرف فيها أحداً سواهم فأحبهم وأحبوه ، وضحووا من أجله ويريد أن يضحى من أجلهم .

هذا وقد أقر الاسلام هذا الشعور الفطرى ، بل أمر بالإحسان إلى الأقارب . « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى ، وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ، وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا » (٧) . وأوجب صلة الرحم وحرم قطعها ، وجعل قطعها من صفات الكافرين « فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ » (٨) ، بل يجب صلة الأرحام حتى ولو كانوا كفاراً ، وأمروا بالكفر « وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » (٩) .

والإسلام حينما أقر حب العشيرة والأقارب لم يجعل هذا الحب مدعاة لظلم الآخرين وقطع العلائق الإنسانية ، فإذا تعارضت مصلحة القوم والعشيرة مع

مصالح الآخرين وجب تقديم الحق والعدل على كل شيء « وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا^(١٠) قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى »^(١١) وقال تعالى : « وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »^(١٢) .

كما جعل رابطة العقيدة والأخوة الإيمانية مقدمة على كل الروابط والعلاقات ، « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ »^(١٣) ، ويقول « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ »^(١٤) .

موقف الاسلام من العصبية :

جاء الاسلام والعصبية في أوج عزها ومجدها ، فلا نداء إلا نداء القبيلة ، وكانت تقع بين القبائل الحروب الطاحنة انتصاراً للقبيلة والعشيرة ، ونتيجة للتعصب الأعمى قال شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم للنائبات على ما قال برهانا

وكان التفاضل بينهم مبنياً على أساس النسب ، فأبطل الاسلام ذلك وجعل رابطة الإيمان هي الرابطة الصحيحة « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ »^(١٥) وجعل النصرة للحق لا للنسب ، ورجع الانسانية إلى أصل واحد « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً »^(١٦) فلا تفاضل بالنسب والحسب وإنما التفاضل بالتقوى « يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »^(١٧) ، وجعل الود والموالة بين المؤمنين وحرم موالة الكفار وموادتهم « لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ، وَيُوَدِّعُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »^(١٨) فنبت العصبية والقوميات لأنها تفرق بين الناس ، وأمر بالاعتصام بدين الله لأنه يجمع الناس على رابطة صحيحة ، تجمع ولا تفرق ، توحد ولا

تشت « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » (١٩) . ويقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه عن العصبيات الجاهلية : « دعوها فإنها منتنة » (٢٠) « من تعزى بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا » (٢١) « ليس منا من دعا إلى عصبية وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » (٢٢) ، وقال لأبى ذر رضى الله تعالى عنه حيناً غير بلائاً بقوله — يا بن السوداء ، « إنك امرؤ فيك جاهلية » (٢٣) .

وبهذا أمات الإسلام الدعوة إلى العنصرية والقومية والعصبية وجعل الرابطة الإيمانية هي الرباط التي تشد المسلمين بعضهم إلى بعض ، فتوحد المجتمع الاسلامي فكان يداً واحدة معتصمة بالله وحبله المتين « هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (٢٤) حتى أن جاء القرن الثالث عشر فبدأت من هنا وهناك صيحات تنادى بالقومية والوطنية يدفعها إلى ذلك الكافر المستعمر الذي يبيت الشر بالمسلمين ليفرق كلمتهم ويشتت شملهم ، ويفض جمعهم ، ويهدم صفوفهم ، فتكون له السيادة والريادة .

يقول الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله : (انظر اليهم كيف يشجعون في بلادنا القوميات التاريخية التي عفى عليها الزمن ، واندثرت منذ حمل العرب رسالة الاسلام ، فتوحدت لغتهم وعقيدتهم وبلادهم ، وحملوا هذه الرسالة إلى العالم فأقاموا بينهم وبين الشعوب روابط إنسانية وتاريخية وثقافية إزدادوا بها قوة وازدادت الشعوب بها رفعة وهداية ، إنهم ما برحوا منذ نصف قرن يحاولون إحياء الفرعونية في مصر ، والفينيقية في سوريا ولبنان وفلسطين ، والآشورية في العراق وهكذا ، ليتسنى لهم تشتيت شملنا كأمة واحدة ، وليعوقوا قوة الاندفاع التحريرية عن عملها في قوتنا وتحررنا وسيادتنا على ارضنا وثرواتنا وعودتنا من جديد إلى قيادة ركب الحضارة ، وإلتقائنا مع اخوتنا في العقيدة والمثل العليا والتاريخ المشترك والمصالح المشتركة) (٢٥) .

تاريخ القوميات المعاصرة :

بعد أن فتح جيش الدولة الإسلامية القسطنطينية على يد محمد الفاتح رحمه الله سنة ٨٥٧ هـ (سنة ١٤٥٣ م) وبدأت جيوش الاسلام تتوغل في أوربا ، شعرت الدول الأوربية بالخطر الذي يهددها ففكرت في الأمر ، ودرست الموضوع من كل جوانبه ، وتوصلت إلى نتائج منها :

- ١ — أنها لا قبل لها بمحاربة الدولة العثمانية نظراً لقوة جيشها الذي لا يغلب .
- ٢ — أن الحرب مع المسلمين غير مجدية ، إذ جربت الحروب الصليبية ، فقد توغلت في بلاد المسلمين ولكن ما لبثت أن طردت من حيث أتت .
- ٣ — أن سر قوة وعظمة المسلمين تكمن في تمسكهم بالقرآن وتطبيق أحكام الاسلام .

فإذا أرادت أوربا محاربة المسلمين فلا بد من تشتيت وحدتهم (فرق تسد) ، وإبعادهم عن الاسلام بإفساد سلوكهم وجرحهم إلى الانحراف ، حتى يعودوا إلى حالتهم الأولى قبل الاسلام — حيث كانوا في حياة جاهلية يتناحرون فيما بينهم لدافع العصبية ، والتفاخر بالأنساب والأحساب .

وقد خطط لهذا زعماء اليهود وحكماؤهم^(٢٦) ، والصليبيون الحاقدون ، فبدأوا بأعمالهم التخريبية ضد الدولة الإسلامية التي دامت أكثر من اربعة قرون كان من نتيجتها سقوط الدولة العثمانية ، وقيام دولة علمانية ، تحارب الاسلام على يد مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٢٤ م . وكان من تلك الأعمال :

- ١ — اشاعة فكرة القومية بين أفراد رعايا الدولة العثمانية ، اذ أن هذه الدولة تضم عدداً من القوميات يجمعها الاسلام ، فإذا ظهرت قومية جنس طالب الجنس الآخر بقوميته ، وهذا ما حصل فعلاً ، فحينما طالب الأتراك بقوميته الطورانية^(٢٧) قام العرب بالمطالبة بقوميته العربية ، وقام الأكراد بالمطالبة بقوميته الكردية وهكذا ..

٢ — اشاعة العلمانية — أى قيام الدولة والسياسة على العلم دون تأثير الديانة فيها — وهذا نابع من عقيدة الرأسماليين القائلة بفصل الدين عن الحياة .

٣ — إثارة القلاقل والثورات الداخلية في داخل الدولة لتنشغل في اخمادها فكانت هناك ثورات في بلاد الصرب وشمال البلقان شجعها يهود الدونمة الذين أظهروا الإسلام وهم يبطنون الكفر^(٢٨) ، وثورة اليونان وانفصالها عن الدولة العثمانية التي شجعته انجلترا وروسيا وفرنسا مالياً وعسكرياً وسياسياً ، وثورة الشريف حسين أمير مكة المكرمة سنة ١٣٣٥ هـ واعلانه لنفسه ملكاً ، وإرساله الرسل لاثارة العرب ضد الأتراك^(٢٩) ، وقد أغراه الانجليز بذلك ، وشجعت فرنسا والنمسا الموارنة على المطالبة بالاستقلال بجبل لبنان ، واندلعت الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠ م التي كانت نتيجتها جعل لبنان تحت الحماية الفرنسية .

٤ — التدخل في السياسة التعليمية بواسطة الإرساليات التبشيرية ، حيث غزت تلك الإرساليات البلاد الاسلامية ، والعربية خاصة غزوات ثقافية حطمت فيها البقية الباقية من الثقافة الإسلامية والعلوم الشرعية ، كما شجعوا أبناء النصارى — على وجه الخصوص — على التعلم والدراسة ، وبهذا اكتسبوا ولاء آبائهم وجعلوهم بعد التخرج في اماكن مرموقة من الدولة حيث استلموا المناصب نظراً لما يحملونه من شهادات .

وهذا جعل بعض المخلصين من المسلمين يفكرون في فتح مدارس اسلامية لتدريس أبنائهم ، ولكن نظراً لضعف الإمكانيات المادية وقصور المناهج الدراسية ، والشعور العام لدى أبناء البلاد نحو الغرب ودراستهم جعل هذه المدارس لا تستمر طويلاً .

حقيقة القومية :

يختلف دعاة القومية^(٣٠) في بيان حقيقتها ومفهومها :
١ — فمنهم من يرى أنها : وحدة الدم والعرق والجنس والعنصر .

٢ — ومنهم^(٣١) من يرى أن عناصر القومية هي : اللغة والشعور وليست علاقة النسب والميلاد .

٣ — ومنهم من يرى أنها وحدة التراب والأرض التي ولدوا ونشأوا عليها ، وهذا ما تعنيه الوطنية .

٤ — ومنهم من يرى أنها : وحدة التاريخ والتقاليد والعادات والمصير .

٥ — ومنهم من يرى أنها : وحدة المصالح المشتركة .

٦ — وبعضهم يرى أنها تتكون من هذه العناصر كلها — من العرق ، واللغة ، والتراب ، والتاريخ ، والمصالح المشتركة .

ولكن إذا حللنا هذه الأقوال وجدناها زائفة وهمية لا تعتمد على حقيقة .

١ — فعامل العرق والعنصر — شعور وهمي إذ لا يستطيع شعب أن يثبت أنه يحتفظ بسلالته ونقائه العرقي على ممر العصور ، إذ الشعوب قد حصل فيها التزاوج والإختلاط .

٢ — أما عامل اللغة — فلا تعدو أن تكون اللغة أداة للتعبير والتفاهم الانساني وهي قالب تصب فيه الأفكار والمعاني ، فلا تحدد الفكر والاتجاه . علماً بأنه يوجد في بعض البلاد لغات متعددة كالهند والصين وسويسرا وغيرها .

٣ — أما وحدة التراب فقد سبق وأن فندناها في مبحث الوطنية . كما أنه لا يوجد ما يمنع من أن يمتد خط هذا الوطن حتى يشمل الأرض كلها ، إذ وطن الانسان جزء من هذه الأرض ، فلماذا لا يكن شعوره أنه يستوطن الأرض كلها^(٣٢) وقد وضعها الله للناس عموماً فهي اقليمهم وهي وطنهم المشترك ، قال الله تعالى « **وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ** »^(٣٣) .

٤ — أما وحدة التاريخ والعادات فليس هناك ما يمنع من ايجاد تاريخ جديد تجتمع عليه الانسانية وعادات يشترك فيها الجميع .

٥ — أما وحدة المصالح المشتركة ، فهي تضيق دائرة العيش أمام الناس جميعاً ، إذ ليس هناك ما يمنع من إيجاد المصالح المشتركة مع جميع الناس . فيتعدى التعامل الاقتصادى الحواجز والحدود فتحصل الفوائد لجميع الناس . كما أن المصالح مؤقتة تنتهى بنهايتها الروابط ، وهي عرضة للمساومة على مصالح أكبر منها ، كما أنها قد تكون خطراً على البشرية جمعاء وذلك حينما تتعارض المصالح ، وهذا ما نراه واضحاً بين المعسكرين الغربي الرأسمالي ، والمعسكر الشرقي الاشتراكي حيث كل منهما يساوم ويخطط لمصالحه ويعد نفسه فيما لو إقتضى الأمر الحرب وإفناء بعضها بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة ، كما أن الثقافة وفلسفة الفكر بنيت عند من يؤمنون بهذه الرابطة على النفعية المادية ، حتى الفضائل عندهم تنشذ الرفاهية المادية لا غير .

ويبرر دعاة القومية دعوتهم بأن البلاد توجد فيها عدة ديانات من يهودية ونصرانية وإسلام ، فلو جعلت الديانة هي الرابطة بين الناس لحصل الاختلاف والتفرق بين الطوائف داخل المجتمع الواحد ، أما إذا أخذ بالقومية فإن الجهود ستوحد ولا تثور الحزازات الدينية والنعرات الطائفية .

ولكن الواقع غير هذا ، إذ نجد الارتباط بين اصحاب الديانات في البلد الواحد ، فنجد اليهودى لا يمكن أن يترك يهوديته وارتباطه باليهود ، والنصراني كذلك ، كما أن الطوائف والأقليات قد عاشت تحت ظل الإسلام قروناً طويلة في أمن وسلام على مالها ونفسها ، وتمارس معتقداتها وديانها (لا اكراه في الدين) ، وتتمتع بالحقوق الخاصة والعامة ، وقد وضع الفقهاء رحمهم الله تعالى قاعدتهم العادلة .. لهم ما لنا وعليهم ما علينا .. وقد ضرب التاريخ لنا أروع المثل حينما اتصل أهل مصر بعمر بن العاص — وهو في بلاد الشام يطلبون منه غزو بلادهم لتخليصهم من حكم الرومان لما رأوا وسمعوا من عدل الاسلام « وَلَا يَجْرِ مِنْكُمْ شَنْآنٌ قَوْمٍ عَلَى أَنْ لَا تَعْدِلُوا ، اَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى » . إنما الذي يدفع بعض الأقليات إلى الفتنة والتخريب في بعض الأحيان هو اتصالهم بأعداء الاسلام من المستعمرين حتى أصبحوا ورقة في أيديهم يلعبون بها كما يشاؤون .

أسباب فساد الرابطة القومية :

الرابطة القومية غير صالحة للربط الانساني لعدة اسباب منها :

١ — تضيق دائرة الارتباط ، إذ لا يمكن أن تسع الناس جميعاً إذ هي رابطة قبلية عرقية تقوم على العنصرية فهي ناشئة عن ضيق الفكر والأفق ، فالإنسان فيها لا يرى إلا حب سيادة قومه وعشيرته ، وهذه نظرة الإنسان المنخفض فكرياً ، إنما الإنسان الواعي يدرك أنه ليس من صالح الإنسانية أن تكون بينهم النظرة العنصرية إذ هم في الأصل من أب واحد ، فلا داعي لتفضيل جنس على آخر أو الارتباط بقوم دون آخرين .

٢ — تحدث المخاصمات والمشاجرات بين الناس على السيادة ، وتظل هذه الرابطة عرضة للمخاصمات الداخلية إن لم تشغل عنها بالمخاصمات الخارجية .

وأحياناً على بكر أحياناً إذا ما لم نجد إلا أئاناً وقد رأينا ونعيش في هذه الأيام الدائمة، فنجد دعاة القومية يطعن بعضهم في بعض ويكيل له السباب والشتائم ويحند إعلامه للنيل من الآخرين .

٣ — يستحيل أن تكون رابطة انسانية إذ لا يمكن أن يشترك الناس في الوطن ولا في العنصر ولا في التاريخ .

٤ — رابطة عاطفية إذ هي ناشئة عن غريزة حب البقاء فيوجد عند الانسان حب السيادة لنفسه ثم لقومه ثم لوطنه ، والعاطفة غير ثابتة إذ تتغير بحسب الظروف والأحوال ، فهي غير محددة بضوابط معينة .

٥ — هذا وقد اسلفنا كيف شجب الإسلام الدعوة إلى العنصرية والعصبية وجعلها من دعوات الجاهلية الباطلة .

مكانة العرب :

لقد أعز الله العرب بالاسلام : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ » (٣٤)

حيث نزل القرآن بلغتهم « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا » (٣٥)

وجعل هذه اللغة هي لغة أهل الجنة ، وبها يسأل الميت حينما يوضع في قبره : من ربك ؟ ما دينك ؟ ومن نبيك ؟ وبها يتعبد المسلم في صلاته ، وهي الوسيلة لفهم الاسلام .

فإذا تخلى العرب عن الإسلام وأصبحوا كفاراً فإن الله تعالى لا ينصر إلا من ينصره ، ولا يعز إلا من يتمسك بدينه « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » (٣٦) ، يقول عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : (إنا كنا أذل قوم ، فأعزنا الله بالاسلام ففهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله أذلنا الله) (٣٧) ، فمن كفر استحق غضب الله ومقته حتى ولو كان عربياً ، إذ الناس كلهم خلق الله ، وليس بين أحد وبين الله نسب ، فمن أطاع الله استحق رضاه ، ومن عصاه استحق غضبه ، وهذا أبو لهب وزوجته — وهما عريان — يقول الله في حقها : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ، مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ، سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ، وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ » (٣٨) ، وهذا الوليد بن المغيرة يقول الله في حقه كذلك : « ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا » (٣٩) الآيات .. وهذا سلمان الفارسي رضى الله تعالى عنه — مع أنه غير عربى — يقول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه في حقه : « سلمان منا آل البيت » (٤٠) وهذا ياسر وابنه عمار وزوجته سمية يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في حقهم : « اصبروا آل ياسر موعدكم الجنة » (٤١) مع أنهم غير عرب ، ولكنهم آمنوا بهذا الدين الذي لا يفرق بين أحد :

الناس من جهة التمثيل أكفاء	أبوهم آدم والأم حواء
نفس كنفس وارواح مشاكلة	وأعظم خلقت فيهم واعضاء
فإن يكن لهم من أصلهم حسب	يفاخرون به فالطين والماء
ما الفضل إلا لأهل العلم انهم	على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه	وللرجال على الأفعال أسماء
وضد كل امرئ ما كان يجهله	والجاهلون لأهل العلم اعداء

يقول سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز : (ولكن لا يلزم من الاعتراف بفضلهم أن يجعلوا عماداً يتكفل حوله ويوالى عليه ويعادى عليه ، وإنما ذلك من حق الاسلام الذي أعزهم الله به وأحيا ذكرهم ورفع شأنهم ، فهذا لون وهذا لون ، ثم هذا الفضل الذي امتازوا به على غيرهم ، وما من الله به عليهم من فصاحة اللسان ونزول القرآن الكريم بلغتهم وارسال الرسول العام بلسانهم ليس مما يقدمهم عند الله في الآخرة ولا يوجب لهم النجاة إذا لم يؤمنوا ويتقوا ، وليس ذلك أيضاً يوجب تفضيلهم على غيرهم من جهة الدين ، بل اكرم الناس عند الله اتقاهم كما تقدم في الآية الكريمة والحديث الشريف ، بل هذا الفضل عند أهل التحقيق يوجب عليهم أن يشكروا الله سبحانه أكثر من غيرهم ، وأن يضاعفوا الجهود في نصر دينه الذي رفعهم الله به ، وأن يوالوا عليه ويعادوا عليه دون أن يلتفتوا إلى قومية أو غيرها من الأفكار المسمومة والدعوات المشثومة ، ولو كانت انسابهم وحدها تنفعهم شيئاً لم يكن أبو لهب وأضرابه من اصحاب النار ، ولو كانت تنفعهم بدون الإيمان لم يقل لهم النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح : « يا معشر قريش اشتروا انفسكم من الله . لا أغنى عنكم من الله شيئاً » (٤٢)

* رابطة المبدأ (٤٣)

هي الرابطة الصحيحة لربط الإنسان بأخيه الانسان حين يسير في طريق النهوض ، لأنها تجعل كل من آمن بالعقيدة التي ينبثق عنها نظام إخوة يربطهم المبدأ بغض النظر عن أوطانهم وجنسياتهم ، فمن آمن بالاسلام من العرب هو أخ لمن آمن بالاسلام من العجم ، ومن آمن بالإشتراكية من اسرائيل هو أخ لمن آمن بالاشتراكية من العرب والروس ، ومن آمن بالرأسمالية من الامريكان هو أخ لمن آمن بالرأسمالية من الاوربيين وهكذا ..

الرابطة الاسلامية :

المبدأ الاسلامي هو الذي ربط بين عمر بن الخطاب العربي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي — مع أنهم مختلفو اللغات والألوان والعادات

والتقاليد والقوميات ، والمبدأ الاسلامي هو الذي باعد بين خالد بن الوليد وابه الوليد بن المغيرة ، وباعد بين محمد صلوات الله وسلامه عليه وبين عمه أبى لهب ، وباعد بين عبدالله بن عبدالله بن أبى بن سلول وبين والده عبدالله بن أبى ، وباعد بين أبى بكر الصديق وبين أبى جهل مع أنهم من قبيلة واحدة وقومية واحدة ويتكلمون لغة واحدة ، ولهم عادات وتقاليد واحدة .

إن الرابطة الاسلامية هي التي استطاعت أن تجعل القلوب تتقارب ويقدم كل مسلم مصلحة أخيه على مصلحة نفسه : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » ^(٤٤) « الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُمُ بَعْضًا » ^(٤٥) ، « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّىٰ يَحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يَحِبُّ لِنَفْسِهِ » ^(٤٦) « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ » ^(٤٧) « وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا » ^(٤٨) « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ » ^(٤٩) . يقول سيد قطب ^(٥٠) رحمه الله في التعليق على قوله تعالى : « وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » ^(٥١) (ولقد وقعت المعجزة التي لا يقدر عليها إلا الله ، والتي لا تصنعها إلا هذه العقيدة ، فاستحالت هذه القلوب النافرة ، وهذه الطباع الشموس إلى هذه الكتلة المتراسة المتآخية الذلول بعضها لبعض ، الحب بعضها لبعض ، المتآلف بعضها مع بعض ، بهذا المستوى الذي لم يعرفه التاريخ ، والذي تتمثل فيه حياة الجنة وسمتها البارزة « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُودْرِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ » ^(٥٢) كما تشهد الأمة التي بناها على الحب أنها لم تكن مجرد كلمات مجنحة ، ولا مجرد أعمال مثالية فردية ، إنما كانت واقعاً شامخاً قام على هذا الأساس الثابت ، باذن الله الذي لا يقدر على تأليف القلوب هكذا سواه) ا.هـ .

وحينما ربط الاسلام بين الناس وجعلهم متحابين حرص على صيانة هذه الرابطة

من كل ما يחדشها أو يؤدي إلى وهنها ، وذلك بقطع أسباب التنازع والشحناء كاللدعوة إلى العصبية « ليس منا من دعا إلى عصبية » وحرم الغيبة والنميمة ، والتجسس « ولا تَجَسَّسُوا ولا يَغْتَبْ بَعْضُكُم بَعْضاً أيح أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه » (٥٣) وأمر بالعفو والإعراض عن الجاهلين « ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا وما يُلَقَّاها إلا ذو حظ عظيم ، وإما يَتَرَعَّنَكُمُ الشيطان نَزْغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم » (٥٤) .

والإسلام حين ألغى الروابط التي لا تستند إلى عقيدة ونظام أرجع الانسانية إلى أصل واحد : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منها رجالاً كثيراً ونساء » (٥٥) . حتى تعلم أن سبب التفاضل الجنسي والعنصرية خرافة يصنعها الإنسان ، فالإسلام جاء ليكون الرسالة الخالدة إلى جميع الناس على اختلاف أوطانهم ولغاتهم واشكالهم وعاداتهم ومصالحهم ، لا يختص به شعب دون شعب ، ولا زمن دون زمن ، ولا أرض دون أرض « وما أرسالناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » (٥٦) ، « أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى » (٥٧) .

يقول الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله (٥٨) : (إن الحضارة التي لا يستعلي فيها عرق على عرق ، ولا لون على لون هي الحضارة التي يسعد بها الإنسان العاقل الكريم ، وتسعد بها الانسانية الواعية الكريمة ، والحضارة التي يعلو فيها الأبيض ويمتنع الأسود ، ويسعد بها ذوو البشرة البيضاء ويشقى بها الملونون هي الحضارة الجاهلية التي ترتد بها الانسانية إلى الوراء مئات القرون عمياء متكبرة جاهلة حمقاء) .

الرابطة في الحضارة الغربية :

إن الدول الغربية تدعى انها تقيم الروابط الإنسانية على اساس عدم التمايز بين

الناس وقد أعلنت هذا هيئة الأمم المتحدة في حقوق الإنسان الذي وقعت عليه ، ولكن هذا نظري لا واقع له من التطبيق العملي ، إذ هناك التفريق العنصري في امريكا سيدة الحضارة الغربية بين البيض والملونين حيث يفرق بين الطبقتين ، فالبيض هم الذين يلون المراكز القيادية دون السود ، بل وصل الأمر بهم إلى أن تخصص مدارس ومستشفيات ومطاعم وقطارات للبيض لا يسمح للسود بدخولها ، بل حتى في أماكن العبادة للبيض كنائسهم وللملونين كنائسهم ، ويذكر الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله^(٥٩) أنه حدث أن دخل زنجي من جمهورية بنما كنيسة كاثوليكية في واشنطن ، وفيما هو مستغرق في صلاته ، سعى إليه أحد القسوس وقدم له قصاصة من ورق كتب فيها عنوان كنيسة زنجية كاثوليكية ، وحين سئل القس عن سر هذا التصرف أجاب : (إن في المدينة كنائس خاصة بالكاثوليك الزوج يستطيع هذا المرء الأسود أن يقف فيها بين يدي ربه) .

وهناك التمييز العنصري في كافة البلاد التي لا تدين بشريعة الله ، في اتحاد جنوب افريقية وروديسيا^(٦٠) ، وانغولا وموزنبيق والهند ، وفي الدول الاشتراكية ، رغم اعلان الأمم المتحدة ، ولكنها لا تستطيع أن ترغب القلوب على التطبيق ، ففي أحد مدارس البيض في جنوب أمريكا لما أرغمتها المحكمة الفدرالية على دراسة أبناء الزوج فيها وأتى البوليس لحماية أبناء الزوج اضرب الأطفال البيض عن الدراسة احتجاجاً على دراسة أبناء الزوج معهم .

ناصر بن عقيل الطريفي

الاستاذ المساعد بكلية الشريعة بالرياض

هوامش البحث

- (١) المقدمة ص ١٤ .
- (٢) سورة الزخرف آية ٣٢ .
- (٣) جاء في المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوى : رواه ابن ماجه في المناسك ، والترمذى في المناقب ، والدارمى في السير .
- (٤) كما هو الحال في لبنان ، وايران ، وتركيا .
- (٥) الاسلام على مفترق الطرق ص ٣٨ .
- (٦) إنما باستطاعتهم اعتناق الفكر والعقيدة فيكونون اعضاء في المبدأ .
- (٧) النساء آية ٣٦ .
- (٨) سورة محمد آية ٢٢ — ٢٣ .
- (٩) لقمان آية ١٥ .
- (١٠) « لا يجرمنكم » أى لا يحملنكم . « شتان » أى عداوة وكرهية .
- (١١) المائدة آية ٨ .
- (١٢) الانعام آية ١٥٢ .
- (١٣) التوبة آية ٢٣ .
- (١٤) التوبة آية ١١٣ .
- (١٥) الحجرات آية ١٠ .
- (١٦) النساء آية ١ .
- (١٧) الحجرات آية ١٣ .
- (١٨) المجادلة آية ٢٢ .
- (١٩) آل عمران آية ١٠٣ .
- (٢٠) رواه البخارى — فتح البارى ج٦ ص ٥٤٦ ومسلم — النووى ج١٦ ص ١٣٨ .
- (٢١) رواه أحمد — المسند ج٥ ص ١٣٦ .
- (٢٢) رواه مسلم وابو داود .
- (٢٣) رواه البخارى في كتاب الايمان ج١ ص ١٥ ومسلم في كتاب الايمان ، وابو داود والترمذى وأحمد .
- (٢٤) سورة الانفال آية ٦٣ .
- (٢٥) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم ص ١٩ — ٢٠ .
- (٢٦) اقرأ كتاب برتوكولات حكماء صهيون .
- (٢٧) الطورانية : شعوب شرقية ينتمى إليها الشعب التركى — انظر كتاب (بين الكتب والناس) لعباس محمود العقاد ص ٦١ وما بعدها .
- (٢٨) المصدر السابق .

(٢٩) انظر ص ١٧٤ من كتاب : « تاريخ المملكة العربية السعودية » تأليف سيد محمد ابراهيم والدكتور حسن سليمان محمود الطبعة الثانية سنة ١٣٨٢ هـ المقرر على طلاب السنة الثالثة المتوسطة حيث جاء فيه (وعدت انجلترا بعدم اجراء صلح ما لم يتضمن حرية الشعوب واستقلالها في مقابل ثورة العرب ضد تركيا وتسخير مواردهم وجهودهم لنصرة الحلفاء) .

(٣٠) امثال : نجيب عازورى ، وانطون سعادة ، ومثيل عفلق ، وجورج حبش ، وساطع الحصرى .

(٣١) امثال : ضياء جوك آلب — فيلسوف القومية التركية ومبشرها الأكبر .

(٣٢) انظر معالم الثقافة الاسلامية للدكتور عبدالكريم عثمان ص ١٣٨ .

(٣٣) سورة الرحمن آية ١٠ .

(٣٤) الزخرف آية ٤٤ .

(٣٥) الشورى آية ٧ .

(٣٦) سورة محمد آية ٧ .

(٣٧) رواه الحاكم .

(٣٨) سورة المسد .

(٣٩) سورة المدثر آية ١١ .

(٤٠) رواه الحاكم في المستدرک على الصحيحين ج ٣ ص ٥٩٨ .

(٤١) رواه الطبرانی ورجاله ثقات — قاله الهيثمى في مجمع الزوائد ج ٩ ص ٢٩٣ .

(٤٢) ص ٢٠ — ٢١ من كتاب : نقد القومية العربية على ضوء الاسلام والواقع — طبع دار الثقافة الاسلامية .

(٤٣) المبدأ : عقيدة عقلية ينبثق عنها نظام — انظر كتاب حكم الاسلام في الاشتراكية للشيخ عبدالعزيز البدرى رحمه الله ص ١٥٨ الطبعة الثالثة — منشورات المكتبة العلمية بالمدينة المنورة لصاحبها محمد نمكانى رحمه الله .

(٤٤) سورة الحجرات آية ١٠ .

(٤٥) رواه مسلم — صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٦ ص ١٣٩ . وفي الحديث الآخر : « مثل المؤمنین في

توادمهم وتراحمهم » البخ . ورواه البخارى — فتح الباري ج ١ ص ٤٥٠ .

(٤٦) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٤٧) سورة الحشر آية ٩ .

(٤٨) سورة الحشر آية ١٠ .

(٤٩) سورة الفتح آية ٢٩ .

(٥٠) في ظلال القرآن ج ١٠ ص ٥٦ — ٥٧ .

(٥١) سورة الأنفال آية ٦٢ — ٦٣ .

(٥٢) الحجر آية ٤٧ .

(٥٣) الحجرات آية ١٢ .

- (٥٤) فصلت آية ٣٤ — ٣٦ .
- (٥٥) النساء آية ١ .
- (٥٦) سبأ آية ٢٨ .
- (٥٧) رواه الطبراني في الأوسط والبخاري بنحوه قاله الهيثمي في مجمع الزوائد ج ٨ ص ٨٤ .
- (٥٨) من روائع حضارتنا ص ١٤ نقلاً عن عبدالكريم عثمان في معالم الثقافة الاسلامية ص ١٣٤ .
- (٥٩) من روائع حضارتنا ص ٧٠ — نقلاً من معالم الثقافة الاسلامية لعبدالكريم عثمان ص ١٢٧ .
- (٦٠) ايان سميث رئيس حكومة التمييز العنصرى في روديسيا سابقا .